★★★★★ حتمية الاغتراب ★★★★★

والتر كاوفمان

ترجمة : كامل يوسف

يعدّ تحليل المفاهيم الغامضة (*) احدى الوظائف الجوهرية التي اضطلعت بها الفلسفة منذ عهد سقراط ، ولكن كيف يستطيع المرء أن يحلل مفهوم « الاغتراب » ؟ ذلك اننا اذا ما ركزنا اهتمامنا على شخص بعينه لنثبت انه لا يدرك ما يعتقد انه يعرفه وانه يناقض نفسه فاننا نترك الانطباع بأننا ازاء ضحية تعسة اضطرب سيرها بينما يعي عشرات من الكتّاب المشهورين تماما ما الذي يتحدثون عنه؛ وهكذا فان منهاج سقراط لا يسعفنا هنا.

ان ما تمسّ الحاجة اليه هو دراسة نقدية متأنية للطرق التي استخدم بها العديد من أكثر الكتّاب تأثيرا هذا المصطلح ، وتلك بالطبع مهمة شاقة تتطلب ثقافة رفيعة . غير انه دون هذه الدراسة سننحدر دائما الى مستوى الخلط حينما نقرأ شيئا عن الاغتراب ؛ أما اذا لم نبد اهتماما بكيفية استخدام الآخرين لهذه الكلمة فاننا نعرض أنفسنا لان يلفت نظرنا الى ان هذا الاصطلاح يعني في الحقيقة شيئا آخر واننا ينبغي أن نطالع مؤلفات هذا الكاتب أو ذاك .

وقد كتب ريتشارد شاخت كتابا تمسّ الحاجة اليه بصورة ملحة ، حيث يحدثنا باختصار عن كيفية استخدام مصطلح الاغتراب قبل عام ١٨٠٠ ويوضح كيف تحدث هيغل ــ وهو الاب الروحي لموضوع مناقشتنا الراهنة عن الاغتراب ــ بمعنيين يقفان على طرفي نقيض ، وكيف ان استخدامات ماركس لهذا المصطلح ــ والتي حللها شاخت باستفاضة ــ لا تقل عن ذلك تباينا ؛ وسيجد كل من يهتم بماركس وهيغل هذه الفصول مثيرة للاهتمام ، كما سيجد كل من يهتم بالاغتراب انها مفيدة الى حد بعيد وتلقي أضواء على الموضوع .

ويمضي شاخت ليقدم لنا نقدا ضافيا للمعاني العديدة التي استخدم اريك فروم هذا المصطلح بها ؛ ثم مناقشة مقتضبة لآراء كارين هورني ودراسة بالغة الاهمية للآداب الاجتماعية الحديثة حول الاغتراب ؛ وأخيرا يقدم شاخت مناقشة لأفكار هيدجر وسارتر وتيليش .

ومن الآن فصاعدا يتعين ألا يكتب أحد عن الاغتراب دون أن يطالع كتاب شاخت أولا . ولقد راودت الشكوك كتابا آخرين حول ما اذا كانت كلمة الاغتراب قد استخدمت دونما تمييز ، الى حد ان جدوى استخدامها قد أضير على نحو خطير . غير ان ما كانت الحاجة ماسة اليه لم يكن التصميم القاطع على التخلي عن هذا المصطلح أو استخدامه بطريقة محددة على نحو واضح وانما كانت الحاجة ماسة الى تقديم نوع من الايضاح .

غير ان ذلك هو كل ما يقدمه شاخت لنا ؛ فهو يوضح انه ليس هناك معنى عام واحد للاغتراب يمكن أن يقال ان مختلف الكتاب قد ناقشوا جوانبه المتباينة ، ولكن ذلك لا يترتب عليه القول بأن الاوضاع التي طبق هذا الاصطلاح عليها لا تستحق دراسة جادة ، بل على العكس فقد حان الوقت لاعادة بحث هذه الاوضاع . ولكن أيا كان من يرغب في القيام بذلك فسيكون مدينا لشاخت ــ وهو الحال بالنسبة لي على سبيل المثال ــ وذلك لقيامه بتجميع كل ما طرح حول هذه الظاهرة في مجلد واحد .

لقد قدم لنا شاخت منطلقا لأية دراسة مستقبلية للاغتراب ؛ وهذا المقال الذي يأتي بمثابة مقدمة لكتاب شاخت يمنحني فرصة الاشارة الى مسار انطلاقنا من النقطة التي وصلنا اليها .

ان اهتمامي الجوهري لا ينصبّ على هذا المفهوم

(*) مقدمة كتاب : « الاغتراب : دراسة في أخطر ظواهر المجتمع الحديث » . تأليف ريتشارد شاخت ، الناشر : جورج آلين، لندن ، ١٩٧٦ .

وانما على الاوضاع التي استخدم لتوصيفها ، ومن المعتقد بصفة عامة ان هذه الاوضاع حديثة بوجه خاص ، غير اني آمل أن أظهر انها أوضاع مألوفة لدى معظم ان لم يكن كل فلاسفة الماضي العظام ، وسأقوم بالمثل بتناول الادب والفن ، وذلك دون الاقتصار على عدد محدود من كبار شعراء الماضي ، ولكن أيضا مع معالجة موضوعات أوديب وهملت . وسأتناول كذلك العلاقات القائمة بين الجمهور والادب والفن والموسيقى . والواقع انه سواء اخترنا الحديث عن الاغتراب أو لم نختر ذلك، فان التجارب التي تربط هذا المفهوم بأوسع المعاني غالبا ما يعتقد انها سمات مميزة لعصرنا أو للمجتمعات الرأسمالية ، ولكننا سنرى انها بالفعل تصادفنا كثيرا في العصور الغابرة وفي مجتمعات غير رأسمالية .

وسأقوم بتوجيه النقد الى حلم ماركس عن المجتمع غير المغترب ، وكذلك عن الفكرة المتداولة القائلة بأن الامور لم تكن أبدا أسوأ مما هي عليه الآن . ولسوف يبدو تقييد ماركس الذي كان له تأثير واسع النطاق لمعنى المصطلح الماثل بين أيدينا ليقتصر على الظروف الهدامة موضع اعتراضات جادة ، كما انه لن يكون هناك غناء في تقييد معنى الاصطلاح ليقتصر على الاغتراب المثمر ، ذلك ان الاغتراب ليس مرضا كما انه ليس نفحة علوية ، ولكنه ، شئنا أم أبينا ، سمة جوهرية للوجود الانساني .

١ ـ رؤية تاريخية :

وصل مفهوم الاغتراب الى سمته خلال الحرب الباردة باعتباره ملتقى للغرب والشرق وللماركسية والوجودية ، وقد استخدم أريك فروم ـ الذي ساهم كثيرا شأنه في ذلك شأن الآخرين في اشاعة الاصطلاح ـ مفهوم الاغتراب في كتابه « الهروب من الحرية » الصادر عام ١٩٤١ مرتين (في صفحتي ١١٩ ، ١٥١) . ويتناول شناخت بعض الظواهر التي طبق عليها فروم هذا المفهوم في الصفحات ١١٧ وما بعدها من هذا الكتاب ، ولم تشق هذه الكلمة طريقها الى القواميس الفلسفية الا في الستينات .

وذلك أمر غريب ، لان هيغل استخدم هذا الاصطلاح كثيرا في كتابه الاول « ظاهريات الروح » الصادر عام ١٨٠٧ ، حيث نجد فصلا بأكمله يقع فيما يزيد على مائة صفحة يحمل عنوان « الروح المغترب عن ذاته : الثقافة » ، وقد أعقب هذا الفصل فصل آخر بعنوان « الروح المتيقن من ذاته : الاخلاق » . أما ان الاغتراب لم تجر مناقشته في العالم الناطق بالانكليزية حتى في أوج قمة المثالية الانكلو ـ أمركية فليس أمرا مدهشا ، لان المثاليين ركزوا على أعمال هيغل التالية ، ولم يهتموا بصفة عامة بالظاهريات الا قليلا ، وليس مما يظهر ايضاحه السبب الكامن وراء اهمال الآداب الالمانية الهيغلية لهذا الموضوع كذلك ، فلم يدرج هرمان غلوكنر الكلمتين الالمانيتين المقابلتين للاغتراب وهما Entremdung التي تعني الغربة و Entausserung بمعنى التخارج ، في مؤلفه المكون من أربعة مجلدات والصادر تحت عنوان « القاموس الهيغلي » في السنوات من ١٩٣٥ الى ١٩٣٩ . وكذلك لم يدرج جوهان هوفمايستر هذين المعنيين سواء في قائمة مصطلحات كتابه الرفيع المستوى بعنوان « الظاهريات » والصادر في ١٩٥٢ أو في كتابه الذائع الصيت « قاموس المفاهيم الفلسفية » الذي صدرت طبعته الثانية في ١٩٥٥ . أما ان هيغل قد استخدم هذين المصطلحين وألقى عليهما أضواء واضحة من فهمه لتطور الروح فأمر لا يوضح لنا حقيقة السبب في ان هذه المجموعة من الافكار قد حظيت باهتمام محدود على امتداد مثل هذا الوقت الطويل ؛ ذلك اننا بازاء حالة فكرة لم يهل على الدنيا زمانها بعد .

والاستثناء الوحيد الكبير أمامنا يؤيد هذا التصور ، فقد فتن كارل ماركس الذي كان في الثالثة عشرة من عمره ، حينما توفي هيغل في ١٨٣١ ، بهذا الجانب من فلسفة هيغل حينما شرع في دراستها عقب ذلك باثني عشر عاما ، ونجد في كتابه « المخطوطات الفلسفية لعام ١٨٤٤ » مناقشة طويلة لمفهومي الغربة والتخارج ، ولكن معظم هذه المادة لم تنشر حتى ١٩٣٢ ، وفي البيان الشيوعي الصادر في ١٨٤٨ يشجب ماركس بصفة خاصة الحديث عن الاغتراب باعتباره « هراء فلسفيا » .

وحتى في ١٩٣٢ لم يكن الوقت قد حان ليطفو الاغتراب على السطح ، فبعد مرور أقل من عام على نشر مخطوطات ماركس الاولى تولى النازيون مقاليد السلطة في ألمانيا وأنهوا مناقشات المثقفين حول فكر ماركس ، وقبلت القيادة السوفياتية النظرة الى الاغتراب التي طرحها البيان الشيوعي ، وسنعود بعد قليل الى مناقشة أفكار ماركس الشاب .

تحدث مارتن بوبر عن التغريب في مناقشته الضافية « لانقسام عالم الهو » في الجزء الثاني من كتابه « الأنا والأنت » الصادر في ١٩٢٣ . واذا رجعنا الى هذا الكتاب وجدنا ان بوسعنا القول بأن معظم الجزء الثاني يتناول الاغتراب ، ولقد ظل تأثير الكتاب لاكثر من ربع قرن قاصرا بصفة أساسية على دارسي اللاهوت البروتستانت .

وعقب ذلك صاغ برتولد بريخت أعماله الشعرية المخالفة للمنهج الارسطي وتحدث عن التأثير التغريبي ، وقصد بذلك ان الجمهور لا ينبغي أن يساق بالوهم .

فعلى مؤلفي الدراما أن يخرجوا عن سيـــاق أعمالهم ليذكروا الجمهور بأنه في مسرح يشاهد عملا مسرحيا ، وبهذا المعنى فان المؤلف المسرحي ينبغي أن يعمد الـــى تغريب الجمهور أو ابقائه منفصلا ؛ كما يتعين عليه أن يحول دون حدوث الاندماج الانفعالي .

وتحدث كتاب آخرون كذلك عن التغريب ؛ ولكن هذين الاصطلاحين لم يثيرا قدرا من الاهتمام يتجـاوز اصطلاح الاغتراب في العالم الناطق بالانكليزية . وحينما انقسم العالم الى معسكرين، سعت الماركسية والوجودية الى ايجاد أرض مشتركة في مناقشتهما للاغتراب .

واذا ما بدأنا بالماركسية لوجدنا ان نشر مخطوطات ماركس الاولى كان بمثابة نجـــدة من السماء للناقد المجري جورج لوكاتش الذي حظي على نطاق واسع في الغرب خلال الخمسينات والستينات باعجاب يفـــوق ما حظي به أي منظر ماركسي آخر . وكـــان الحزب الشيوعي السوفياتي قد كال له النقد بسبب تحريفاتـه الهيغلية للماركسية ، وحينما تولى النازيون السلطة لاذ لوكاتش بالفرار الـــى الاتحاد السوفياتي وتخلى عـن تخريجاته، ومارس النقد الذاتي وأعلن تقديره لستالين. وفي الوقت نفسه انكبّ على تأليف كتاب مسهب باللغة الالمانية أنهى مادتـــه الاساسية في ١٩٣٨ ونشر بعـد مراجعة دقيقة في ١٩٤٨ ، وهو كتابه « هيغل شابا » ؛ وقد حمل الجزء الاخير من هذا المجلد العنوان التالي : « التخارج كمفهـــوم فلسفي جوهري فـــي ظاهريات الروح » .

وعلى امتداد ٣٥ صفحة جعل لوكاتش من الحجر الذي نبذه البناة لمائة وأربعين عـاما حجر الزاوية فـي كتاب هيغل الاول الذي غدا يعدّ في ذلك الوقت أكثـر اعمال هيغل أصالة وتألقا . ولكن مـــن بين الاشارات المرجعية الاربعين التي دعم بها لوكاتش ما ذهب اليه في هذا الجزء هناك ست منها فقط تحيل الى كتابات هيغل بينما هناك اشارتان تحيلان الى لينين واشارتان الـى انجلز و ٢١ اشارة مرجعية تحيـــل الى كتابات كـارل ماركس .

ويبدو ان الاهتمام الحـديث بمناقشات ماركس وهيغل يعود الى هذا الكتاب ؛ وذلك أمر بالـغ الغرابة لان الجزء الاخير من هذا المجلد يتعين بصورة واضحـة أن يفهم من خلال سياق تاريخ حياة لوكاتش الحافـــل بالاضطراب باعتباره محاولة متقنة للافصاح عن الذات. فقد ذهب لوكاتش الى ان فهمه للهيغلية لا يمكن أن يعتبر تحريفا لها ، ذلك ان هيغل ابتـــداء قد أسيء فهمه ، فالاغتراب مفهوم جوهري في فكره كما هو الامر بالنسبة لماركس ، وبالطبع لا يمكن العثور عـلى مفهوم الاغتراب في الكتب التي نشرها ماركس بنفسه . وذلك باستثناء الموضع الذي يدين فيه صراحة أولئك الذين استخدموا هذا الاصطلاح، ولكنه كان مفهوما جوهريا في مخطوطاته الاولى وقد قدمت هذه بدورها مفتاح التفسير الصحيح لفكر ماركس في مراحل النضج .

كانت استراتيجية لوكاتش واضحة ؛ ومن هنـا لم يقتنع بها موظفو ستالين ، ويبدو مـــن الامور غير القابلة للتصديق أن يستمد الذيوع الحديث للاغتراب ذاته من مثل هذه البداية غير المبشرة ، ويبدو ذلك أقل قابلية للتصديق حينما يبحث المرء في حقيقـــة تركيز لوكاتش على التخـــارج أكثر من الغربة ، رغم انه قـد استخدم المفهومين معا ، شأنه في ذلك شأن ماركس .

وطالما اننا ننظر الى مأزق لوكاتش باعتباره ورطة شخصية تماما ، فقد يبدو ممكنا أن نفهم التطورات التي تلت ذلك بالفعل في الخمسينات والستينات . ولكـن ما حدا به الى اتخاذ اتجاهه التحريفي هو في المقام الاول خلفيته الانسانية وصلته المبكرة بالوجودية ، بل لقـــد أشير الى ان بعضا من أكثر اهتمامات هيدجر تميزا ، بما في ذلك تمييزه بين الوجود الحقيقي والوجود غير الحقيقي ؛ قد استمد مـن عمل لوكاتش الاول ، وذلك على الرغم من ان لوكاتش نفسه قال ان « هذه المشكلة كانت تحوم فوق الرؤوس » ، الامر الـذي يبدو أقرب الى الاحتمال ، كما انـــه ذكر ان كيركجورد قد لعب « دورا يعتدّ به في تطوري المبكر في السنوات الاخيرة السابقة على الحرب العالميـــة (أي قبل ١٩١٤) فـي هيدلبرج ، بل لقـــد اعتزمت أن أضع كتابا حول نقـد هيغل » . كذلك تأثر لوكاتش الى حد كبير بجورج زمّل وماكس فيبر . ورغم ان الاخير يعرف بأنه أحد عباقرة علم الاجتماع ، الا انه كان له تأثير واضـــح في تكوين كارل ياسبرز ، فلم يكن لوكاتش اذن راغبا على الاطلاق في التنكر لجذوره ؛ وقد قدمت النزعة الانسانية لدى ماركس الشاب بعد انتظار مضن جسرا كانت الحاجـة اليه ماسة لخلق تقـــارب بين الماركسية من ناحيـة والوجودية والنزعة الانسانية من ناحية أخرى .

وفي الوقت نفسه كـــان بعض الكتاب الغربيين الذين اقتربوا بدرجة أو بأخرى مـن الوجودية يتطلعون الى ايجاد سبل لتحقيق التقارب مع الماركسية ، وهؤلاء بدورهم تشبثوا بمخطوطات ماركس الشاب وبمفهـوم الاغتراب .

وقد أحرز هربرت ماركوز ، الذي أهدى عمـــله الاول الى هيدجر الذي أشرف عـلى دراسته ، قصب السباق متقدما على لوكاتش الذي لم يستطع أن ينشر كتابه عن هيغل الذي دبجه بالالمانية حتى ١٩٤٨ ، بينما تمكن ماركوز الذي وضع كتابه باللغة الانكليزيـة فـي الولايات المتحدة تحت عنوان « العقل والثورة : هيغل ونشأة النظرية الاجتماعية » مـن نشر كتابه في ١٩٤١ مستخدما مخطوطات ماركس الاولى باستفاضة ، ومبديا

قدرا كبيرا من الاهتمام بالاغتراب ، وقد يكون هـذا الكتاب بالفعل هو الكتاب الاول الذي تضمن فهرسه للاصطلاحات لفظ الاغتراب ، رغم انه ينبغي أن يلاحظ ان فهرس طبعة جون‌بيلي الصادرة بالانكليزية للظاهريات يضع الاغتراب عن الذات مقرونا بمناقشة هيغل « للوعي التعس » والغربة مقرونة باشارتين الى الفصل المذكور.

وقد ادرج كارل لوفيث الـذي درس على يد هيدجر كذلك مناقشة للاغتراب في كتابه « من هيغل الى نيتشه » الصادر في ١٩٤١ والذي كتبه في المنفى باليابان ونشر بالالمانية في نيويورك وزيوريخ . وفي هذا الكتاب لم يكن مفهوم الاغتراب جوهريا كما هو الحال عند ماركوز ولوكاتش ، ولكن الفصل الذي عقده لوفيث عن العمل تضمن اشارتين ، أولاهما حول « هيغل : العمل كاغتراب عن الذات في تشكيل العالم » ، والثانية حول « ماركس : العمل كغربة انسانية في عالم لا يملكه الانسان » ، وقد تضمن كتاب لوفيث العديد من‌الفصول التي يمكن اعتبارها في اهمية الفصل الذي عقده عن العمل ، وحفل الكتاب بالاشارات التي تدور حول هيغل وماركس وكيركجورد ونيتشه وكتّاب آخرين اقل اهمية ، وما كان ذلك يمكن أن يؤدي الى جذب الاهتمام للاغتراب ـ وهو ما كان يمكن أن يفعله كتاب ماركوز ـ لكن ذلك لم يحدث ، اذ لم يكن الوقت قد حان بعد لذلك .

ورغم ان ماركوز لم ينشر كتابا آخر طوال الاعوام الاربعة عشر التالية ومضى للعمل في وزارة الخارجية في الفترة من ١٩٤١ الى ١٩٥٠ الا ان المناقشات حول ماركس سارت على الدرب الذي شقه ماركوز ولوكاتش، وبدا كتاب سيدني هوك « من هيغل الى ماركس » بصورة مفاجئة منتميا الى عهد غابر وذلك على الرغم من انه نشر قبل ذلك بخمس سنوات في عام ١٩٣٩ ؛ ذلك انه لم يتناول مفهوم الاغتراب .

وفي الخمسينات ، جعل عدد محدود من‌اللاجئين من المانيا والنمسا الاغتراب شيئا مألوفا في الولايات المتحدة ، فقد اتت على ذكره بصورة دائمة كتب : ماركوز « العشق والحضارة » الصادر في ١٩٥٥ ، واريك فروم « المجتمع السوي » الصادر في ١٩٥٥ ، واريك كالر « البرج والهاوية » الصادر في ١٩٥٧ ، وحنا أريندت « الوضع الانساني » . كما ان قوائم مصطلحات هذه الكتب تحفل بالاشارات الى الاغتراب ، فعلى سبيل المثال يرد هذا المفهوم في كتاب فروم « المجتمع السوي » مرات عديدة في الصفحات من ٧٠ الى ١١١ ومن ٨٤ الى ١٧٥ .

وقد ظلت حنا أريندت ، شأنها في ذلك شأن ماركوز ، تحت تأثير هيدجر مدة طويلة ، رغم انها غالبا ما يرد ذكرها مرتبطة بكارل ياسبرز الذي كانت تربطه بها صلة شخصية وثيقة . واكد بول تيلبش الذي ساهم بدوره في ذيوع مفهوم الاغتراب علاقته بصورة متكررة بالوجودية ؛ أما كالر وفروم فقد افتقروا الى أية خلفية وجودية متميزة ؛ ذلك انهما ينتميان ـ كل بطريقته الخاصة ـ الى النزعة الانسانية .

سبق هذا الانفجار لبركان الاهتمام بالاغتراب ظهور طبعة شعبية من رواية « الغريب » في ١٩٥٤ ، وكان كامو قد نشر هذه الرواية عام ١٩٤٢ وظهرت ترجمة ستيوارت جلبرت لها في ١٩٤٦ ، ولكن الطبعة الشعبية وحدها هي التي جعلت هذه الرواية المقتضبة واحدا من أكثر الكتب تأثيرا في منتصف‌القرن ؛ وأصبح بطلها أحد أبطال جيل جديد .

وفي المانيا بدأ مفهوم الاغتراب في جذب الاهتمام الجماهيري بعد ظهور مخطوطات ماركس الاولى في طبعة شعبية في ١٩٥٣ ، ولكن الجدير بالملاحظة ان أحد تلاميذ ياسبرز وهو هنريش بوبيتز كان أحد القلائل الذين كرسوا أنفسهم لدراسة هذه المشكلة ، وظهرت أطروحته بعنوان « المغتربون » والتي كان عنوانها الفرعي : « نقد ماركس‌الشاب للعصر وفلسفة التاريخ » في العام نفسه .

وكان اريك فروم هو الذي قدم مخطوطات ماركس الاولى للجمهور الاميركي ، وتكشف لنا الطريقة التي قام بذلك من خلالها عام ١٩٦١ الكثير عن التحولات التي طرأت على الساحة الاميركية على امتداد الستينات .

نشرت مخطوطات ماركس الاولى تحت اسم فروم لا ماركس ، وكان عنوان الكتاب « اريك فروم ـ مفهوم ماركس عن الانسان » ، وكان عنوان الكتاب هو أيضا عنوان المقال الذي احتل المقدمة التي تبعتها مختارات من المخطوطات ذاتها ، وربما لم يكن ذلك مجرد انعكاس لذاتية فروم كما قد يكون أحد أعراض مرحلة ما بعد عصر مكارثي حيث كان ما يزال من الممكن اقناع أحد الناشرين بأن اسم فروم سيكون مصدر جذب للقراء أكثر من اسم ماركس ، كما ان ذلك كان مؤشرا لما أوضحه فروم بقوله في المقدمة : « ان فلسفة ماركس ، شأنها في ذلك شأن قطاع كبير من الفكر الوجودي ، تمثل احتجاجا على اغتراب الانسان وفقده لذاته وتحوله الى شيء ، انها تحرك ضد نزع انسانية الانسان وتحوله الى آلة وهما ظاهرتان تضربان جذورهما في تطور حركة التصنيع الغربية » .

وقد حاول لوكاتش جعل ميوله الوجودية المبكرة أكثر جدارة بالاحترام بالرجوع الى ماركس الشاب ، وفي الولايات المتحدة تحول ماركس الى مؤلف اكثر جذبا للاهتمام من خلال محاولات اظهار ان هناك الكثير مما يربطه بالوجودية .

غير ان منهاج لوكاتش بدا كما لو كان قد أصبح لا غناء فيه . فقبل اكتشاف المخطوطات الفلسفية كان من المتعذر أن نجد الكثير من الجوانب الفلسفية في كتابات ماركس . واضطر كتاب جيل سابق الى التحول الى انجلز بدلا من ماركس ؛ بل كان اكثر صعوبة أن نعثر على اهتمام يعتدّ به بالكائن البشري الفرد في دول ذات حكومات شيوعية ، وقد قدم ماركس الشاب لمحة الخلاص لاولئك الذين يشعرون بخيبة الامل لأحد هذين السببين أو لهما معا . ففي مخطوطات ماركس يجد المرء نقدا مفصلا لهيغل جنبا الى جنب مع محاولات لصياغة فلسفة جديدة ، وأصبح من المألوف في الوقت الراهن أن تكشف هذه الكتابات الاولى وليس أعمال انجلز التالية النقاب عن وجه فلسفة ماركس الحقيقية، ولكن ما هو أكثر أهمية انه أصبح بوسع المرء أن ينقل عن ماركس نفسه مقتطفات تؤيد الاحتجاجات التي كان يمكن من قبل أن تشير الى تأثيرات برجوازية غربية ، وقد أصبح الاغتراب في فرنسا وألمانيا وبولندا ويوغسلافيا مفهوما جوهريا في مناقشة الماركسية ، وفي الولايات المتحدة أصبحت هذه الكلمة من الانتشار الى حد انه لم يعد واضحا ما اذا كانت الاستخدامات العديدة التي كرس المفهوم لها تسمح بالقول بأن هناك معنى واحدا محددا له .

وقد استخدم فروم هذا الاصطلاح بمعان عديدة متباينة ، شأنه في ذلك شأن الكثيرين ، فيقول في أحد مواضع مقاله « مفهوم ماركس عن الانسان » ان مفهوم الاغتراب هو باللغة اللاتينية ما يعادل في الاصطلاحات اللاهوتية ما يمكن أن يسمى بالخطيئة (ص ٤٦) . والقاسم المشترك الوحيد في كافة استخدامات فروم لهذه الكلمة يتمثل بصورة فعلية في انه يقف موقف الرافض للاغتراب ، ويتفق معظم الكتّاب ـ وان لم يكن جميعهم ـ على رفض الاغتراب واعتباره ظاهرة معاصرة بصورة واضحة ، وحينما يعترف بامكانية العثور على الاغتراب في الماضي ، كذلك فان هذا التنازل يتبع بصفة عامة بالزعم بأنه الآن أكثر تطرفا بصفة عامة وانه اغتراب شامل .

وبالنسبة لي بدت توصيفات علل العصر التي طرحت في كتب الخمسينات التي تحمل بشائر التطور في المستقبل خاطئة ، لكني كنت أشعر انه ينبغي أن يقدم تحليل جديد على أن يقترن بدراسة نفسية مسهبة للآداب التي دارت حول الاغتراب . أما الآن وقد قدم شاخت هذا العرض النقدي فقد حان الوقت لاعادةالنظر في الظاهرة التي طبق هذا المصطلح عليها .

٢ ـ تحليل

ان الفعل « يغترب Alienate » هو فعل لازم ؛ شأنه في ذلك شان معادلية في اللغة الالمانية ، وهو يعني حرفيا « يغدو غريبا أو يجعل شيئا ما ملكا لآخر » ولكن الاسم المشتق منه وهو الاغتراب ، شأنه في ذلك شأن المرادف الالماني الغربة Entremdung وعلى عكس الكلمة الالمانية التي تعني التخارج ، لا يستدعي للذهن عادة نشاطا اللهم الا في سياقات خاصة حيث يستخدم كاصطلاح فني ، وما يرتبط في ذهننا ابتداء بكلمة الاغتراب او الغربة Entremdung هو حالة للوجود الانساني ، حالة كون المرء مغتربا أو مفارقا لشيء أو لشخص ، والظاهرة التي أقترح مناقشتها هنا هي حالة من هذا النوع .

اننا نهتم بالعلاقة بين « أ » ، « ب » باعتبار ان « ا » هو شخص أو مجموعة من الاشخاص كفرد أو طبقة او جيل بأسره أو شعب أو مجموعة أصغر ، و « ا » هذا عادة ما يكون متعينا . واذا كان قدر كبير من الغموض يدور حوله ، فان ذلك نادرا ما ينتج عن عدم القدرة على الاشارة الى طبيعة « ا » هذا ، ولكن « ب » أيضا يحتاج الى التعين ؛ والخلط غالبا وبصورة مطابقة ما ينتج عن عدم القدرة على تحديد من أو ماذا يفترض ان « ا » مغترب عنه ، ان الاغتراب اصطلاح يتطلب تتبعه في بعدين .

ولكن ما الذي يمكن أن يكونه « ب » ؟ انه يمكن ان يكون فردا كوالد المرء مثلا أو زوجته أو طفله ، كما يمكن أن يكون جماعة كعائلة المرء أو رفاقه أو جيرانه ، ان « ب » هو الآخرون بصفة عامة أو المجتمع الذي يعيش فيه المرء ، كالمجتمع الاميركي أو السوفياتي على سبيل المثال ، وربما يكون « ب » هو ذات المرء وبصفة خاصة جسده أو احدى سمات شخصيته أو ماضيه ، كما قد يكون الطبيعة ، والطبيعة ليست بالمصطلح الأحادي المعنى . ولكننا يمكن أن نفهمه بالمعنى الذي نقصده اذ نتحدث عن عشاق الطبيعة ، وأخيرا فان « ب » قد يعني الكون .

وتلك ليست قائمة مكتوبة على سبيل الحصر ، فيمكن للمرء كذلك أن يغترب عما يفعله (عن نشاطه أو عمله أو ما يؤديه) أو عن الاشياء (عن ناتج عمله على سبيل المثال) . وقد أكد ماركس الشاب كلا من هذين الشكلين للاغتراب ، بالاضافة الى اغتراب الانسان عن جوهره أو طبيعته الحقة ، وهو مفهوم كان محوريا في فكره عام ١٩٤٤ ، وبينما يستخدم ماركس الاغتراب بمعان عديدة ، فان الظاهرة التي تعنيه أكثر من غيرها هي نزع انسانية الانسان وما فقد الانسان لاستغلاله وافقاره واغترابه عن غيره من البشر وانغماسه في عمل مجرد من أي أصالة عفوية أو خلق الا جوانب متعددة لاغتراب الانسان عن طبيعته الحقة . وبالطبع فانمسألة

ما أذا كان للانسان جوهر هي مسألة موضع مناقشة . واذا ما نظرنا الى الكيفية التي استخدمت بها مخطوطات ماركس الاولى لتقريبه من الوجودية لوجدنا انه مما يثير السخرية انه ما من أحد مضى على نحو حافل بالانفعال الى القول بأنه ليس للانسان جوهر قدر ما فعل جان بول سارتر .

وبالرغم من ذلك فان ماركس الشاب وسارتر في كتاباته الاولى ليسا على طرفي نقيض بأي حال من الاحوال ، وقد اثار سارتر في مرحلته الوجودية الاولى الكثير من الجدل حول تمييزه بين وجود الاشياء في ذاتها ونمط وجود الانسان من أجل ذاته ، وذهب الى القول بأن الانسان يفتقد صلابة الاشياء « حيث حكم عليه بأن يكون حرا » ، وأظهر بالتفصيل لا في أعماله الفلسفية فحسب وانما كذلك من خلال قصصه القصيرة ورواياته ومسرحياته كيف ان البشر يخضعون لضعف ايمانهم ويخفون حريتهم عن أنفسهم وينظرون الى ذواتهم كاشياء . وكان تركيزه المفرط على الحرية الكاملة للانسان متناقضا بالتأكيد لا فقط مع الماركسية ولكن كذلك مع حقائق الحياة ، وكان وعيه المتزايد بخواء هذا اللغو والاشكال التي يبدو بها عدم تحرر المقهورين والجائعين ، وباختصار وعيه الاجتماعي ، هو الذي قاده أكثر من أي عنصر آخر مفرد الى تقاربه التالي مع الماركسية . ولكن حتى فلسفته الاولى كان يمكن صياغتها بما يتفق ومفهوم الطبيعة الانسانية ، والفارق الاساسي بين ماركس الشاب وسارتر في مرحلته الاولى لا يكمن في ان احدهما يتمسك بهذا المفهوم بينما يعارضه الآخر ، وانما هو يتمثل في ان سارتر يركز على التطورات النفسية التي تقود البشر الى أن ينظروا الى ذواتهم كأشياء أو كموضوعات ، كأناس غير أحرار ، بينما يقصر ماركس اهتمامه على التطورات الاقتصادية التي تؤدي الى النتيجة نفسها ، وكلاهما معني بفقد الانسان لحريته ، ولكن ماركس ينظر الى غير الاحرار باعتبارهم ضحايا ، بينما يصر سارتر في مرحلته الاولى على اننا ضحايا أنفسنا ، واننا في الحقيقة أحرار واننا نخطىء في حق أنفسنا بعدم ادراك ذلك .

وهكذا فان بوسع المرء أن يتحدث عن الاغتراب عن الحرية وبالنسبة لاولئك الذين يؤمنون بالله أو بالآلهة فهناك كذلك اغتراب عن الله أو الآلهة ، ولكن الحديث عن الاغتراب دون ايضاح لمن الذي يقع في شرك الاغتراب وعمن أو عن ماذا يغترب ليس بالامر المثمر ، والحديث عن الاغتراب الشامل للانسان المعاصر هو بالمثل لغو لا معنى له ، شأنه في ذلك شأن الحديث عن الغياب الشامل للاغتراب .

ولا ينبغي أن نتساءل فقط عمن أو عن ماذا يفترض ان شخصا أو جماعة يشعر بالاغتراب ، ولكن ايضا ما الذي سيشكله غياب هذا الاغتراب والا يجد الشخص غير المغترب ان مجموعة من الناس أو الافراد و شيئا في المجتمع الذي يعيش فيه غريبا على وجه من الاوجه . واذا ما كان الامر كذلك فهل يستطيع المرء أن يدعو نفسه شخصا ، واذا ما فعل ذلك ألا يتعين عليه أن يضيف أن وضعه مرضي للغاية وانه على حافة الاصابة بالعته ؟

ان الوعي بالذات يتضمن ادراكا لما هو آخر . وبالتحديد فانه اذا ما وجد امرؤ ما شيئا انسانيا غريبا بالنسبة له فانه يكون مفتقدا بصورة شاملة لأي احساس بالذاتية (هذا يعيد الى الاذهان بيت تيرنس الرائع « انني انسان وما من شيء انساني يبدو غريبا بالنسبة لي » . والذي يشير لا الى الغياب الشامل وانما الى التغلب على الاحساس بالاغتراب ، وهو انتصار يتطلب خيالا وتفهما لا بلاهة) . واذا لم يستطع شخص ما أن يميز بين يده ويد أخرى ودأب على التعايش بصورة فعلية مع احداها تماما كما يفعل مع الاخرى فانبوسعنا ان نقول انه يدرك يده باعتبارها يدا غريبة وانه مغترب عن ذاته وبتحديد أكبر مغترب عن جسده .

ترى هل وقعنا في المحظور وخلطنا بين الآخرية والغربة ؟ ان شخصا ما أعرفه باعتباره شخصا آخر غيري ليس من الضروري أن يبدو غريبا بالنسبة لي ، وقد يكون مرآه مألوفا بالنسبة لي ، اذ أشاهده في الجانب نفسه من الشارع في تمام التاسعة مساء ، أو قد يكون ندلا أراه عادة حينما أذهب الى مطعم معين. أو قد يكون ممثلا ذائع الصيت أو سياسيا او شخصية عامة أخرى . انه ليس غريبا أو غير مألوف لي ذلك اني أعرفه ، ولكن بأي معنى من المعاني أعرفه ؟ انني ببساطة لا أهتم بما فيه الكفاية بالتفكير في ٩٩ ٪ من أولئك الذين بالنسبة لي كالارض المجهولة ، اننا غرباء ولكننا لا نهتم بما فيه الكفاية بادراك ذلك أو بابداء ضيقنا به ، بل لقد يتردد المرء في الحديث عن الاغتراب أو الغربة في مثل هذه الحالات حتى لا يفهم انه يفترض ان هناك حالة مسبقة من الالفة الوثيقة .

ولكن لنفترض الآن انني ذهلت لادراكي حقيقة انني لا اعرف هذا الشخص . ان ذلك قد يحدث حينما نشرع في تبادل الحديث ، ولربما ما كنت لأتردد في القول بأنني أعرفه ، ولكن الآن وقد عرفته بصورة افضل قليلا فانني قد أشعر بأنني في الحقيقة لا أعرفه على الاطلاق وانه غريب عني تماما .

وقد يبدو أن هذا اللغز يمكن ارجاعه الى المعنى المزدوج لفعلي « يعرف » و « يغترب » ؛ فكما أشار هيغل فان ما هو معروف من خلال التعرف عليه وبالتالي ما هو مألوف ليس بالضرورة معروفا بمعنى انه مستوعب أو مدرك ، ولكن هذا ليس كل ما هنالك . فالالفة تعرقل

المعرفة، والادراك يتضمن التغلب على الاحساس بالغربة؛ وهذه النقطة هي بدورها نقطة جوهرية في فكر هيغل .

وثمة ملاحظة اخرى تجعل الامر أكثر وضوحا ، فمن الصعب ان نرى من خلال منظور قريب وان ندرك ما هو قريب بالنسبة لنا ، ذلك ان الادراك يتطلب مسافة ما ويتشكل من احراز الانتصار على هذه المسافة ، وهكذا فان أوديب الذي حلّ لغز أبي الهول حول الوضع الانساني لم يتعرف على أمه وابيه ولم يدرك علاقته بزوجته وابنائه . وفشل فرويد في ادراك المشاكل الفلسفية لتابعيه الاثيرين ساندور فرنسيزي وأوتو رانك . وبالمثل فان من السهل غالبا ان نفهم مشاكل الآخرين أكثر من مشاكلنا . وفي مثل هذه الحالات فان الاندماج الانفعالي قد يحجب بالطبع قدرتنا على الرؤية . ولكن الظاهرة نفسها يمكن ملاحظتها بالنسبة لمسرحية أو معزوفة بيان أو مقطوعة موسيقية مالوفة للغاية بالنسبة لنا : اننا هنا نفتقد البعد أو المسافة ويتعين أن نصبح مغتربين اذا ما اردنا استيعابها .

سبق أن أشار افلاطون وارسطو الى ان الفلسفة تبدأ بالتساؤل أو الدهشة . وبوسعنا كذلك أن نقول انها تبدأ حينما يصدمنا شيء ما بغرابته أو ان الفلسفة هي وليدة الغربة وما من ضرورة لان يكون ذلك اغترابا عن البشر الآخرين حيث يمكن أن يكون اغترابا عن الذات أو الكون ، بل قد يبدو لنا اعتقاد أو نسق من الافكار أو قناعة أخلاقية أو قانون كنا نسلم به شيئا غريبا بالنسبة لنا على نحو مفاجيء ، ومثل هذا الاغتراب قد لا يكون بالضرورة مجرد حدث فكري بل قد يشمل غربة عميقة عن ايمان وأخلاقيات مجتمعنا .

وقد يبدو من قبيل اثبات خطأ نتيجة ما باظهار سخف ما يترتب عليها أن نتحدث عن الاغتراب حينما يبدأ طفل ما في طرح أسئلة حول العديد من الاشياء التي لم تكن من شهور قلائل فحسب لتجذب انتباهه على الاطلاق باعتبارها أشياء غريبة والتي ما كان معظم كارهي الثقافة الدنيوية يحلمون بطرح الاسئلة حولها ذلك ان الطفل هو الذي لا يطرح أسئلة يتعين على المرء أن يشعر بالقلق ازاءها . والاغتراب المنتمي الى هذا النوع هو أحد أعراض الصحة العقلية بينما نقصه هو عرض مرضي ، وأولئك الذين يفترضون ان الاغتراب هو بحكم تعريفه يدعو للاسف لن يفكروا في تطبيق هذا الاصطلاح على حالة طفل يتمتع بصحته ، ولكن المراهقة هي طفولتنا الثانية . وحينما يبدأ الطلاب في طرح أسئلة حول مدارسهم والمجتمعات التي يعيشون فيها فغالبا ما يقال انهم مغتربون ، والطفل السليم ينبغي ألا يقنع بالاجابة القائلة بأن ذلك هو ببساطة المسار الطبيعي للاشياء . فهل ينبغي أن يكتفي مراهق بمثل هذه الاجابة ؟

لا شك ان البعض سيحاول تطبيق هذا الاصطلاح على المراهقين فقط من خلال ابداء الاسى أو الرفض ، ولكن وفق المعاني التوصيفية الخالصة فان المراهق الذي يكتسب احساسا بالمسافة يعاني من الشعور بوجود هوة بينه وبين كافة أنواع الاشياء وفئات الناس ويشعر بأنه مغترب ، وفضول الطفل الصغير الذي يطرح الاسئلة لا يرتبط بانتظام بالغ باحساس عميق بالاغتراب.

ومعظم الكتاب الذين يبدون اهتماما كبيرا بالاغتراب يعتبرونه ظاهرة حديثة بصورة مميزة ويستنكفون عنه . ولقد اشرنا بالفعل الى انهم مخطئون في كلا الاعتبارين . وسنعود فيما بعد الى تناول السؤال عما اذا كان هذا الاصطلاح ينبغي أن يقتصر على الظروف الهدامة ، ولكن دعنا أولا نبحث ببعض الدقة ما اذا كان الاغتراب في التحليل النهائي سمة مميزة لزماننا ، او ما اذا كان يقتصر على المجتمعات الرأسمالية كما يشير العديد من الكتاب .

وعند هذه النقطة ينبغي الا نوسع معنى الاسطلاح، والسؤال المطروح هو ما اذا كانت الظروف التي تحفل بها الآداب المعاصرة حول الاغتراب والتي وردت في الكتب الواعدة التي ظهرت في الخمسينات يمكن العثور عليها في الفترات السابقة وفي المجتمعات غير الرأسمالية . وقد يفترض المرء ان أولئك الذين يستنكفون عن الاغتراب ويلقون بعبئه على العصر الحديث أو بصورة أكثر خصوصية على النظام الاقتصادي كان من شأنهم معالجة هذه الموضوعات ببعض العناية . ولكن في نهاية الامر ليست هناك طريقة أخرى لاثبات ان توصيفهم للظاهرة صحيح وانهم اذا ما كانوا مخطئين فعلاجاتهم لا تستحق الاهتمام .

ان ما تمسّ الحاجة اليه هو رؤية تاريخية ، ولكن على الرغم من ان ذيوع مفهوم الاغتراب يضرب جذوره في الكتابات الاولى لما يسمى بالمادية التاريخية ، فان احدى السمات المدهشة للآداب العديدة التي تدور حول الاغتراب هو افتقارها للرؤية التاريخية . ان القول بأن الاغتراب الطبقي موجود في العصور السابقة واننا نواجه في هذا الصدد العبودية وانتفاضات العبيد والثورات هو أمر بالغ الوضوح ، وكان جليا أمام نظر ماركس الى حد ان هذه النقطة لا تحتاج الى أن نتكبد عناء بصددها، ولكننا ذهبنا الى القول بأن الفلسفة انما تولد من رحم الاغتراب ، فدعنا اذن نبدأ تأملاتنا التاريخية بالفلسفة ثم ننتقل بعد ذلك الى الادب .

٢ ـ الفلاسفة المغتربون

أفلاطون هو أول فيلسوف نعرفه من خلال أعماله الكاملة وليس من خلال الشذرات ، كما انه يعتبر كذلك وعلى نطاق كبير أعظم الفلاسفة في كل العصور ، وتعتبر محاوراته بالمعنى الفعلي أساس كافة الفلسفات الغربية التالية ، فهل كان مغتربا ؟

ان اغتراب أفلاطون عن المجتمع ليس بحاجة الى أن نستنبطه من تأملاتنا حول أصل الفلسفة ، كما اننا لن نحتاج الى الاعتماد على المقتطفات المتناثرة من كتاباته ؛ فاذا ما تأملنا عمله الضخم في الفلسفة السياسية والاجتماعية ؛ وهو كتاب « الجمهورية » الذي يعتبر بصفة عامة رائعته الحقيقية ؛ لوجدنا انه عمل رجل مغترب عن المجتمع الاثيني وعن سياسات وأخلاقيات عصره . انه رجل لا يخضع للمؤثرات والاوهام وتسيطر عليه القناعة بأنه من العبث بالنسبة له تماما أن يحاول المساهمة في الحياة العامة لمدينته . وهو يعتقد ان ما هو مطلوب ليس سلسلة من التغييرات التي يمكن الاخذ بها في اطار النظام القائم بل وليس المطلوب اصلاح هذا النظام . ذلك انه يتعين اما أن يصبح الملوك فلاسفة أو يغدو الفلاسفة ملوكا « فالى أن يتم بالقوة عزل ذلك القطيع المختلط من أولئك الذين يتابعون الفلسفة أو السياسة في الوقت الراهن احداهما بعيدا عن الاخرى لن تتوقف الاضطرابات بالنسبة لدولنا أو بالنسبة للجنس البشري » . وفي الوقت نفسه يقدم افلاطون وصفا لمدينة لا يمكن العثور عليها في أي من أركان الارض ، ولكنه من غير المهم ما اذا كانت هذه المدينة موجودة الآن أو ما اذا كانت ستوجد في المستقبل ، وسياسات هذه المدينة وحدها هي التي تستحق اهتمام الفيلسوف .

أما تقرير ما اذا كان افلاطون مغتربا عن ذاته فأمر اكثر صعوبة ، لان مفهوم الاغتراب عن الذات أقل وضوحا عنده ولكن افلاطون يذكر بالتحديد اكثر من مرة نوعا من التلاعب بالكلمات كان أثيرا لدى عبدة اورفيوس « فالجسد هو مقبرة الروح » وذلك يعني ان الروح مدفونة في الجسد ، وان الحياة هي منفى واحد طويل ، وان الخلاص يكمن في الموت وحده فأن تكون ذاتا معناه أن تكون غريبا .

ان افلاطون لا يقسم الانسان الى روح وجسد فحسب ، بل هو يمضي الى أبعد من ذلك فيفصل الروح الى ثلاثة أجزاء ويذهب الى القول بوجود هذه الاجزاء الثلاثة من خلال جذب الانتباه الى الامثلة التي تتضارب فيها هذه الاجزاء فتتنازعنا في اتجاهات شتى ، هكذا فان افلاطون يعرف تجربة انقسام الذات ولا يشعر بالالفة لا مع جسده ولا مع غرائزه .

هده الاشارات الى الاغتراب عن الذات جوهرية بالنسبة لموقف افلاطون وهو يقدم طريقا للخلاص ، ويخبرنا كيف يمكن التغلب بصفة نهائية على هذا الاغتراب . ولكنه في أفضل الحالات يظل من المشكوك فيه ما اذا كان سيتم التغلب على الاغتراب في هذه الحياة . ولربما كان سقراط قد تغلب عليه في ساعة موته التي جاء وصفها في محاورة فيدو . ولكن من الجلي ان جزءا من المعنى الجوهري لكتاب «الجمهورية» يتمثل في القول بأن قلائل هم أولئك الذين يتوقع أن يتغلبوا على الاغتراب عن الذات في نمط المجتمع القائم وقتذاك ؛ ذلك اذا كان هناك على الاطلاق من سيحرز هذا الفوز .

وماذا عن الاغتراب عن الطبيعة ؟ ان هذا المفهوم هو أبعد ما يكون عن الوضوح ، لكننا اذا ما افترضنا ـ وبغض النظر عن سذاجة هذا الفرض ـ ان بعض الفلاحين أو الاناس البدائيين يتواءمون مع الطبيعة ويحسون بالالفة في رحابها ويشعرون بالقرب من الارض وانهم ليسوا بمغتربين ، فانه ينبغي أن يقال بهذا المعنى ان افلاطون ؛ شأنه في ذلك شأن استاذه سقراط ، كان مغتربا عن الطبيعة . وفي بداية محاورة فيدراس يجعل افلاطون سقراط يقر بأنه لا يغادر المدينة ليذهب في جولة في الريف بقوله : « انني عاشق للتعلم ، والاشجار والريف لن تعلمني شيئا بينما الناس في المدينة يعلمونني » . ويقارن سقراط نفسه بحيوان يمكن أن يساق اذا ما لوحت أمامه بجزرة، وبالمثل فان سقراط يمكن ان يخرج من المدينة اذا ما لوحت له بكتاب .

وليس هناك دليل على ان افلاطون كان يشعر بالالفة مع الطبيعة أكثر مما كان سقراط يشعر، ويتطلب شق طريقه الى الخلاص من البشر النظر الى حواسهم باعتبارها خادعة وللتجربة الحسية بوصفها وهما وللطبيعة باعتبارها شيئا غير حقيقي . ولكي نحقق خلاصنا يتعين أن ندير ظهرنا للطبيعة وأن نركز عقولنا على المفاهيم الرياضية ، ثم بعد ذلك على الجدل . وينبغي الا نسعى للاحساس بالالفة في هذا العالم . ذلك اننا يتعين علينا أن نكون مقتنعين بعدم واقعيته وأن نضع ثقتنا في عالم آخر يسمو فوق كافة التجارب الحسية ويقع وراء التغير والزمن .

والنقطة الجوهرية هنا لا تكمن في ان الاغتراب ليس الكلمة الدقيقة بالنسبة لمواقف افلاطون أو وضعه، ولكن ما هو أكثر من ذلك ان الظواهر التي تدرج تحت هذا المفهوم على يد كتاب يعتبرونها ظواهر حديثة بصورة متميزة هي في الحقيقة سمات مميزة لفكر افلاطون .

ان ما نعرفه عن افلاطون يفوق ما نعرفه عن أي

من الفلاسفة السابقين عليه . ذلك ان افضل ما لدينا هو شذرات من أعمالهم ، ومن ثم فان المغامرة بطرح آراء عن وضعهم الخاص هو أمر محفوف بالمخاطر ، وما من أحد منهم تناهى الينا كشخصية نابضة بالحياة مثلما فعل هيراقليطس الذي عاش في افسوس والذي قال عنه مواطنوه : « يحسن أبناء افسوس صنعا اذا ما شنقوا انفسهم وبخاصة اذا ما فعل كل الراشدين منهم ذلك ، وأن يتركوا المدينة لليافعين ، حيث انهم نفوا هرمودوروس أكثر الرجال بينهم جدارة بالاجلال قائلين : دعونا لا نترك بين صفوفنا رجلا جديرا بالاجلال ، فاذا ما تقاعسنا عن ذلك فدعوه يذهب الى مكان آخر ويحيا بين قوم آخرين » . فالى أي حد يؤخذ ذلك باعتباره اغترابا عن الثقافة السائدة في عصر وتعبيرا عن اليأس من الجميع عدا الشباب (ذلك مع ملاحظة انه في الستينات من القرن ١٩ ظهرت مقولة ثانية عن عدم الثقة بمن يتجاوز عمرهم الثلاثين عاما) .

وتفصح اشارات هيراقليطس حول أبطال ثقافة عصره ، أي هومر وهزيود وبتاجوراس واكزينوفون ، عن مرارة واضحة كذلك . ولسنا بالطبع في حاجة الى أن نصف هذه المواقف بأنها اغتراب عن المجتمع ، ولكن اذا ما استخدم هذا الاصطلاح لمواقف عصرية من هذا النوع ، واذا ما افترض ان الاغتراب عن المجتمع ينبغي أن تستدعيه أسباب عصرية بصفة خاصة ، فان حالة هيراقليطس تغدو ذات علاقة مباشرة بالموضوع .

وقد حظي هرمان هسه بتقدير قلّ ان يحظى به كاتب آخر من قبل أولئك الذين يعتبرون انفسهم مغتربين ، وكانت الرواية التي شكلت نقطة وثوب هسه الى مكانته المميزة هي رواية « دميان » التي صدرت تحت اسم مستعار في ١٩١٩ ، ولم يعرف في البداية انه هو الذي ألفها ، وكانت العبارة التي صدرت بها الرواية تنويعا على مقولة هيراقليطس الشهيرة « عن نفسي ابحث » والتي جاء فيها : « لا أنشد شيئا الا أن أحاول أن أعيش كل هذا الذي تصنعه نفسي انطلاقا من ذاتها ، ترى لم يصعب ذلك للغاية ؟ » ، وكان ذلك ايضا هو موضوع روايات هسه التالية ، وهو اسلوب آخر في القول بأن التغلب على الاغتراب أمر شاق .

ولم يكن كل الفلاسفة السابقين على سقراط منعزلين مثل هيراقليطس ، ولربما كان بتاجوراس الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد منعزلا ، ولكن اتباعه شكلوا جماعة فلسفية خلال القرن الخامس قبل الميلاد حينما أصبحت أثينا قوة عظمى شيدت الهياكل فوق تل الاكروبول قبل أن تلقي بنفسها في غمار حرب البيلوبونيز . وخلال عصر اسخيلوس وسوفوكليس ويوربيديس بأسره عاش أتباع بتاجوراس حياتهم المنعزلة في مجتمع مغلق في جنوب ايطاليا . وربما تلقى افلاطون منهم المفهوم النابع من تقديس أورفيوس الجسد باعتباره مقبرة للروح ، وكذلك مذهبهم في تناسخ الارواح والمفهوم القائل بأن حياة الفلسفة مطلوبة للخلاص وان نمط المجتمع يمكن أن يكون مركبة للخلاص . وقد تأثر افلاطون كذلك بقبولهم للنساء في مجتمعهم وممارستهم للملكية الجماعية لكامل الممتلكات وتقسيمهم البشر الى ثلاثة أنماط رئيسية يمثل التجار أدنى طبقة منها ، يعلوها أولئك الذين نمت بداخلهم الرغبة في التميز الى حد كبير ، أما المرتبة الاكثر سموا فهي لاولئك الذين يؤثرون التأمل .

ولسوف يكون مدعاة للسأم أن نرتحل عبر تاريخ الفلسفة بأسره لتجميع نسق يصور عملية الاغتراب . ذلك ان مثالا نهائيا يكفي طالما اننا نختار الرجل الذي ينظر اليه باعتباره أعظم الفلاسفة الذين لا ينتمون للاغريق وهو « كانت » .

لم يهتم « كانت » شأنه في ذلك شأن سقراط بمغادرة مدينته والتجوال في الريف ، فقد كان مغتربا عن الطبيعة . ومثل افلاطون لم يعتبرها شيئا حقيقيا على الاطلاق . واعتقد كذلك ان هناك عالمين في الآخر منهما يكمن الخلود والحرية والاله اذا ما كان هناك اله على الاطلاق .

ومثل هذا الايمان بالعالم الآخر هو عادة علامة على الاغتراب عن هذا العالم وعن المجتمع الانساني المعين وعن ذات الانسان التجريبية ، فهذه الذات ليست حقيقية بصورة مطلقة : ان حريتي وجدارتي العبقرية يعتمدان على بعد آخر يطلق عليه « كانت » اسم الشيء في ذاته .

وكما هو الحال لدى افلاطون فان الذات في غمار التجربة الاخلاقية تنقسم على نفسها . وقد طرح فريدريك شيللر ، وهو واحد من أعظم المعجبين بكانت، هذا الجانب من فلسفة كانت في صورة رائعة في أبيات من الشعر :

الشك الواعي

في حبور اخدم أصدقائي ولكن ـ ويا للاسى ـ دونما رغبة ،
وعلى الرغم من ان الامر يؤلمني الا انني بعيد عن التقى .

قرار

ليس ثمة عزاء آخر ، ولكن عليك أن تحاول الاستخفاف بالامر ،
وأن تقوم ـ في اشمئزاز ـ بما يمليه عليك واجبك .

وليس المرء بحاجة الى الحديث عن الاغتراب عن الذات لدى مناقشة أخلاقيات « كانت » ، ولكن من

الجوهري أن ندرك ان هـــذا الانقسام الكانتي للذات ـ هذا الشعور بالاغتراب عن الرغبات الطبيعية للمرء . كان هو على وجه الدقة ما حاول شيللر أولا ثم هيغل التغلب عليه بصياغة اخلاقيات مختلفة ، بل لقد مضى هيغل في الحقيقة الى تطوير مفهـــوم مختلف للانسان ومكانته في العالم ، للروح وطبيعة الواقع ، وذلك هـو الصدد الذي تحتل مناقشة هيغل للاغتراب مكانها فيه.

ويشير منهاج مختلف الى ان الفلاسفة العظـــام كانوا مغتربين الى حد بعيد بمعنى هام ، فمن هم اولئك الذين كانوا اعظم فلاسفة العصر الحديث ؟ ثمة اجمـاع مذهل على الاجابة : فهناك ديكارت وسبينوزا وليبينتز وباسكال وهيوم وروسو وكانت وهيغل ونيتشه وراسل وسارتر ، وقد يرغب كثيرون دونما شك في اضافة ثلاثة او أربعة أسماء الى هذه القائمة ، ولكن قلائل حقـا هم الذين ينكرون ان هؤلاء الفلاسفة هم مـن أكثر الفلاسفة أهمية وتأثيرا .

لقد فقد ديكارت أمه حينما كان في أول اعوامه ، وكان سبينوزا في السادسة حينما توفيت أمه ، وفي السادسة من عمر ليبينتز مات ابوه ، أما والدة باسكال فقد لفظت أنفاسها الاخيرة ولما يتجاوز الثانية ، وماتت أم روسو عقب وقت قصير من ولادته وغادره والـده حينما كان في العاشرة ، وفقـــد كل من كانت وهيغل أميهما حينما كانا في الثالثة عشرة من عمرهما ، وفـي الرابعة فقد نيتشه والده ، وتوفيت والـدة راسل وهو في الثانية ورحل والده عقب ذلك بعامين ، وفقد سارتر اباه حينما كان طفلا في الثانية .

يقول ريلكه في كتـــابه الاول : « اننـا لا نحس بالالفة بشكل وثيق في هذا العالم المضطرب » . ولقـد اخذ ذلك باعتباره صياغة لتوصيف مرض بالغ الحداثة، ولكن معلوماتنا تخلق افتراضا قويا بأن هذا الشعور قد شارك فيه الفلاسفـــة الكبار منذ ديكارت ، وتوضح أعمالهم ذلك بصورة غالبة وبصورة خاصة في حـــالة ديكارت وباسكال وهيوم وروسو وكانت ونيتشه وراسل وسارتر ، ويبدو سبينوزا وليبينتز وهيغل أقل تشككا بكثير ، ولكن الدراسة الاكثر دقة لهيغل تكشف النقاب عن ان ما سعى اليه ووجده بالفعل في الفلسفة هـــو تحقيق الانتصار على شعور لا يمكن احتماله بالاغتراب. فبعد أن قرر في العشرينات من عمره ان الدين لا يمكن ان يمنحه مثل هذا الخلاص تحول الى الفلسفة ، وبعد سنوات من الكفاح حقق من خلالها شعورا بالمصالحـــة مع العالم . وقد يتردد المرء في الحديث عن الاغتراب في هذا الصدد لولا ان هيغل أورثنا هذا الاصطلاح في ذلك السياق بعينه، وأعتقد ان حالتي سبينوزا وليبينتز مماثلتان لذلك بصورة أساسية .

ـ التتمة في العدد القادم ـ

شركة خياط للكتب والنشر (ش م ل)

٩٢ ـ ٩٤ شارع بلس ـ ص.ب ٦٠٩١
بيـروت ـ لبنـان ـ تلفـون ٣٤٤٩٩٨

يسرها أن تقدم

الموسوعتيـن الكبيرتيـن

موسوعة الشعر العربي

الشعر العربي في شتى عصـوره ومناطقه منذ العهد الجاهلي حتى عهد النهضة العربية الحديثة .

٢١٥ شاعرا من العصر الجاهلي
٩٠ شاعرا من العصر المخضرم
٢٤٥ شاعرا من العصر الامـوي
٥٢٤ شاعرا من العصر العباسي
٢٧٠ شاعرا من العصر الاندلسي
٤٣٠ شاعرا من عصور الانحطاط
٢٩٢ شاعرا من عصر النهضة العربية
شعراء عديدون من العصر الحديث

دراسات قيمة عن كل شاعر ، حياته ، بيئته، شعره، عرض مشوق لافكار الشاعر واغراضه ومقاصـده .

في ٣٢ مجلدا ضخما تضم الشعر العربي قديمه وحديثه ، كل مجلد يقع في ٦٥٠ صفحة مـن القطع المتوسط .

ديوان الشعر العربي كله بين يديك في مجموعة واحدة تصدر اجزاؤها تباعا .

●

موسوعة الفن العربي

... الفن والتزيين وهندسة الماضـي المعمارية في ٢٠٠ لوحة أكثر من نصفها بالالوان ، تضمها ثلاثة مجلدات كبيرة ، أصدرتهـــا مكتبة خيـــاط للكتب والنشر في بيروت وباريس ، وهي أجمل هديـة عن الفن الاسلامي ، من تصوير وتصميم « بريس دافين » الذي كان قد درس طوال أعوام مظاهر الفن العربي ، ليخرج هذه الموسوعة عن أجمل آثار العالم الاسلامي.

تحفة رائعـــة تزين مكتبـة بيتك او مكتبك ، وتصور أدق ما توصل اليه الرسامون والمزخرفـون والنقاشون الاسلاميون والعرب في العصور الماضية .

●

اطلب الموسوعتين من شركة خياط للكتب والنشر ، شارع بلس بيروت ، او مـن فرعها في باريس :

Les Editions KHAYAT 25, Rue Berne
75008 PARIS Tél : 293 - 68 - 33